طفولة منهوبة

بسمة النسور

لا شيء يبعث على الغضب والحزن، في هذا الزمن الموحش، أكثر من مشهد أطفال مستضعفين، لم يتجاوز أكبرهم العاشرة، يتراكضون بين السيارات في ساعاتٍ متأخرة من الليل، يتسولون عند الإشارات الضوئية، متسترين بخدعة بيع بضائع خفيفة لا حاجة لها، أو يهرعون إلى تنظيف زجاج السيارات، المتوقفة رغماً عن إرادة سائقيها، مستعطفين الناس، عاملين على إثارة الشفقة بملابسهم الرثة وملامحهم البريئة. يفعلون ذلك، في أحيان كثيرة، مرغمين لصالح عصابات منظمة، تستأجر الصغار من ذويهم قساة القلوب، متبلدي المشاعر، بلا ذمةٍ أو ضمير، بحيث يحرمون أولادهم من دفء الفراش وأمان البيوت، ويرمون بهم، تحت ذريعة الحاجة، إلى الشوارع، عرضةً للبرد والحر والإهانة والجوع والاستغلال الجنسي. يتاجرون بأولادهم وبناتهم، في اعتداء سافر على إنسانيتهم، فتحقق تلك العصابات المجرمة الغاشمة أرباحاً طائلة، جرّاء عذابات أولئك الصغار عاثري الحظ، المحرومين من أبسط حقوقهم الإنسانية في مقابل فتاتٍ لا يغني عن طفولةٍ ضائعة، ابتذلها من هم مؤتمنون عليها. وعلى الرغم من قسوة الفكرة ولا إنسانيتها، قد يجد بعضهم مبرّرات ما لمثل هؤلاء، تحت عنوان الجوع كافر، قد يؤدي بصاحبه إلى التوحش وارتكاب أفظع الجرائم.

ولكن أي مبرّرات منطقية، يمكن تسويقها لأولئك المترفين الجشعين من قاطني الفلل الفاخرة، تجار قنوات اليوتيوب، وهم يستخدمون أطفالهم، كما لو أنهم قردة في سيرك متجوّل، ينزعون عنهم أمانهم واستقرارهم النفسي، وعفويتهم وبراءتهم، مشهرين الكاميرات في وجوههم على مدار الساعة، محققين الأرباح الطائلة بسبب سيل الإعلانات التجارية التي تتخلل بث مقاطع الفيديوهات التي يتوهمونها طريفة، المعدّة لانتهاك خصوصية الصغار ومصادرة طفولتهم ولتجعلهم فرجةً مجانية للعموم. النماذج على امتهان الأهل الطفولة أكثر من أن تُحصى، ولعل أكثرها غباء وفجاجةً الحكاية التي أثارت، أخيراً، ضجة كبرى في مصر والعالم العربي، عن «اليوتيوبر» المصري الأكثر شهرة، حسن وزوجته زينب، اللذين يعتاشان من خلال فضح أدق تفاصيل حياتهم الخاصة. وقد تجاوز عدد متابعيهم المليون، وهم الذين اعتدوا على طفولة صغيرتهم، في مقاطع فيديوهات يومية، حققت لهم ما ينبغي أن يشبع جشعهم. وفي مقطع الفيديو الذي أثار، أخيراً، ضجة كبرى، قررا إعداد مقلب ماكر بالصغيرة المسكينة ذات السنة والنصف، سعيا إلى الإثارة الرخيصة، حين غيرت الأم ملامح وجهها، وطلته باللون الأسود، وقامت بترهيب الصغيرة، فاشتد صراخها وسط سخرية والديها العبقريين وضحكاتهما، ما دفع أحد المتابعين إلى تقديم شكوى رسمية فور انتشار المقطع لمجلس الطفولة، متّهما الزوجين بإيذاء الطفلة وترويعها. الإيجابي الذي يبعث على الارتياح أن المجلس القومي للأمومة والطفولة تقدّم ببلاغ رسمي، على الفور، إلى النيابة العامة التي استدعتهما تمهيدا لمحاكمتهما، وتطبيق العقوبة التي يستحقانها، سيما أن لديهما سوابق، حيث تم تسجيل شكوى بحقهما منذ عامين، وجرى توقيعهما على تعهد وكفالة بالتزامهما بعدم تكرار فعلة استغلال الطفلة من أجل التريّح، ما أدّى حينها إلى حفظ الشكوى. وهما يواجهان الآن خمس تهم خطيرة، منها تعريض طفلةٍ بريئةٍ لانتهاكاتٍ نفسيةٍ عنيفة، وهو ما يعد إساءةً لكرامة الطفل وحقوقه، وكذلك تهمة الاتجار بالبشر. تم توقيف الثنائي التلفزيوني، المهووس بالشهرة وتحصيل الأموال الطائلة، الجاهل غير المدرك أبعاد استهتاره، وفي سياق دفاعهما الركيك، ادّعيا أنهما فعلا ذلك، من أجل اللهو البريء»، واختبار ذكاء الصغيرة، وأنهما لا يطمحان إلى أي تحقيق أرباح.

لعل في هذه الحكاية المؤسفة درسا بليغا لآخرين، وهم كثر، ممن يتاجرون بأطفالهم، سعيا إلى مكاسب ومشاهدات، غير مدركين الآثار النفسية والتشوهات التي ستحدث في تلك الأرواح الهشّة الغضة، جرّاء تصرّفات الأهل الجشعة المستغلة التي لا تقل إجراما ووحشيةً عن جرائم أهالي الصغار الذين يؤجرونهم لعصابات التسوّل الإجرامية المنظمة في ضمان لتدفق أموال سوداء، حصيلتها طفولة منهوبة، ومستقبل مظلم وأفق مسدود.

من هو بطريرك القدس الجديد اللاتين؟

داود كتّاب

يتوقع متابعو مجريات الأمور في الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين والأردن تعيين الفاتيكان، قبل نهاية العام الحالي (2020)، بطريركاً جديداً لطائفة اللاتين، وتدير بطريركية اللاتين، ومقرّها القدس، أبرشية تمتد إلى فلسطين وإسرائيل والأردن وقبرص. وعلى الرغم من وجود غالبية عظمى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية في الأراضي المقدسة من العرب، إلا أنه في تاريخ الكنيسة لم يتم تعيين سوى شخصين عربيين لهذا المنصب المهم. في عام 1987، تم تعيين أول عربي لرئاسة البطريركية، ابن الناصرة ميشيل صباح. وفي 2011، وبعد إحالة صباح إلى التقاعد الإلزامي في عمر 75 عاماً، استلم ابن مادبا الأردنية، فؤاد طوال، مهام رئاسة بطريركية القدس للاتين، ليكون ثاني بطريرك عربي. وحسب نظام الكنيسة الكاثوليكية في المناصب العليا، من مطران ورئيس مطارنة وبطريرك، تنطبق على منصب «أسقف» الشروط نفسها، من حيث التحصيل العلمي اللاهوتية، وضرورة أن يكون الشخص صاحب سيرة وسلوك لا تشوبهما شائبة.

وعلى الرغم من أن لبابا الفاتيكان الكلمة الأخيرة في التعيين، إلا أن التقليد عبر القرون يتطلب مجموعة إجراءات، أهمها مبدأ التشاور أو ما يسمى consulta. ويفيد خبراء بأن عملية التشاور تتم بأعلى درجات السرية البابوية، وغالبا تتم مع حوالي خمسين شخصية من كبار رجال الإكليروس، كما وتشمل بعض المؤمنين غير الكهنة من كلا الجنسين. ويشمل قرار الفاتيكان رأي المسؤول المنصرم ومؤسسة فرسان القبر المقدس، على الرغم من أن ذلك لا يشكل، بحد ذاته، القرار الحاسم. ويدور نقاش داخلي بشأن جنسية المرشح المتوقع للمنصب، علما أن موقع البطريرك، وبعكس المواقع الأخرى، من الصعب جدا تغييره أو استبداله إلا في حالة الوفاة أو الاستقالة أو التقاعد، في حين يحق للفاتيكان نقل المطارنة وغيرهم، ولكن الأمر لا ينطبق على البطريرك. وتؤكد مصادر مطلعة في الطائفة الكاثوليكية أن هناك إجماعا داخليا بين رجال الدين الكاثوليك في الأردن وفلسطين على أنهم مصرّون على ضرورة أن يكون البطريرك الجديد من المنطقة العربية، وبالذات من الأردن أو فلسطين، وليس من خارج منطقة الأبرشية. وقد تكون أكبر مصادر الامتعاض للفاتيكان تكمن في كيفية إدارة البطريركية خلال فترة البطريرك طوال، لعدة أمور، أكبرها وأهمها تعثر الجامعة الأميركية في مادبا، والتي قالت البطريركية، في بيان صدر في القدس أخيرا، إن ديون البطريركية المالكة للجامعة وصلت الى مائة مليون دولار، بسبب «سوء إدارة» الجامعة في الأردن، الأمر الذي اضطر البطريركية لبيع أراضٍ تجارية في منطقة الناصرة لتعويض تلك الديون.

بعد إحالة طوال إلى التقاعد، لم يتم تعيين أي بطريرك، بل أرسل الفاتيكان عام 2016 مدبرا رسوليا إيطاليا عمل في القدس في حراسة الأراضي المقدسة، هو المطران بيير باتيستا بيتسابالا. ويبدو أن مهمته كانت معالجة ديون البطريركية، وترتيب الأمور الإدارية والمالية لمؤسسات البطريركية، قبل الشروع في تعيين بطريرك جديد. ويأتي هذا الإصرار بسبب الامتعاض الذي يشعر به المسؤولون في الفاتيكان من التجربة مع بطريركية اللاتين أخيرا، بسبب المشكلات والإرث السلبي الإداري والمالي التي شكلت موقفا سلبيا لروما لكل ما هو عربي. وقد شكل الأمر زيادةً في تعامل فوقي وصفه عديدون من الإكليروس العرب بأنه يشمل نظرةً عنصرية إلى كل ما هو عربي، حيث يسأل أحدهم: ألم يجد الفاتيكان أي عضو من الإكليروس في الأراضي المقدسة لتعيينه مديرا سوى مطران إيطالي لا يتكلم العربية؟ إضافة إلى الخلافات المالية والإدارية التي سببتها حقبة طوال، هناك عناصر أخرى، لها رأي في من سيتم تعيينه، على الرغم من أن موقفها ليس حاسما، فهناك الدول الأربع ذات علاقة مباشرة مع البطريرك الجدّي، إسرائيل وفلسطين والأردن وقبرص. ويبرز بالأساس هنا موقف إسرائيل والأردن، حيث يحتل موقع بطريرك القدس موقعا مهما في شؤون المسيحيين، على الرغم من أن البطريركية ليست مسؤولة عن الأماكن المقدسة، والتي تعود مسؤوليتها إلى مؤسسة حارس الأراضي المقدسة، أو ما يعرف بالخوية الفرنسيسكان. وقد كانت إسرائيل معترضا حادا على مواقف البطريرك ميشيل صباح الوطنية، في حين كان البطريرك فؤاد طوال موافقا أقل حدة، على الرغم من دفاعه عن الحق الفلسطيني بشكل عام. وتتجلى مواقف بطريرك القدس في احتفالات عيد الميلاد، حيث يشرف على قداس منتصف الليل من كنيسة المهد في بيت لحم، حيث يتم نقل القدّاس وكلمة البطريرك من بيت لحم إلى كل العالم. ويهتم الأردن أيضا بموقع البطريرك، لما للبطريركية ومؤسساتها من دور مهم في الحفاظ على الوجود المسيحي في الأراضي المقدسة، وهو من الأمور التي تركز عليها الحكومة الأردنية والقيادة الهاشمية في كل المحافل المحلية والإقليمية والدولية. ومعروفٌ أن لموقع بطريرك القدس علاقة مباشرة متخصصة في دعم بطريركية اللاتين في كل أنحاء العالم. ومن الضروري التواصل مع القائمين على رهبانية الفرسان لاستمزاج رأيهم قبل صدور القرار.

بعد أن أنهى المدبّر الرسولي مهامه، تمت معالجة الديون المترتبة على جامعة مادبا، من المتوقع أن تتم عمليات استمزاج الرأي في الفترة القريبة المقبلة. وبعد ذلك، يصدر قرار تحديد هوية البطريرك الجديد، حيث من المؤمل أن يتم ذلك قبل نهاية العام، كي يشارك في قدّاس البطريرك ميشيل صباح الوطنية، في حين كان البطريرك فؤاد طوال موافقاً على حق الفلسطيني بشكل عام. وتتجلى مواقف بطريرك القدس في احتفالات عيد الميلاد، حيث يشرف على قدّاس منتصف الليل من كنيسة المهد في بيت لحم، حيث يتم نقل القدّاس وكلمة البطريرك من بيت لحم إلى كل العالم. ويهتم الأردن أيضا بموقع البطريرك، لما للبطريركية ومؤسساتها من دور مهم في الحفاظ على الوجود المسيحي في الأراضي المقدسة، وهو من الأمور التي تركز عليها الحكومة الأردنية والقيادة الهاشمية في كل المحافل المحلية والإقليمية والدولية. ومعروفٌ أن لموقع بطريرك القدس علاقة مباشرة متخصصة في دعم بطريركية اللاتين في كل أنحاء العالم. ومن الضروري التواصل مع القائمين على رهبانية الفرسان لاستمزاج رأيهم قبل صدور القرار.

> المأمول أن يأتي بطريرك مؤمن بعدالة القضية الفلسطينية وبالحق العربي

بعد أن أنهى المدبّر الرسولي مهامه، تمت معالجة الديون المترتبة على جامعة مادبا، من المتوقع أن تتم عمليات استمزاج الرأي في الفترة القريبة المقبلة. وبعد ذلك، يصدر قرار تحديد هوية البطريرك الجديد، حيث من المؤمل أن يتم ذلك قبل نهاية العام، كي يشارك في قدّاس البطريرك ميشيل صباح الوطنية، في ليلة عيد الميلاد المجيد. وتفيد مصادر عليمة في البطريركية أن أربعة أسماء، منهم لبنانيٌ وإيطاليان، قد تم وضعها على طاولة البابا، إلا أن تلك القائمة لم يتم التعامل معها بسبب المعارضة الشديدة لتعيين أي أسقف من خارج الأبرشية، حسب التقليد المتبع في كل أنحاء العالم. وقد يكون لكل الأطراف ذات علاقة مباشرة، رأي في نوعية البطريرك الجديد وجنسيته، إلا أنه من الضروري أن يكون البطريرك ابن المنطقة، عالما بمشكلاتها وتطلعات شعبها، ولديه اهتمام بالشأن ومصالحهم وحاجاتهم الإنسانية في الصمود والبقاء، إضافة إلى حاجاتهم الروحية.

التطلع هو إلى بطريرك من الشعب ذي اهتمام وطني. قائد روحي مؤمن، ومهتم بكل حاجات أبناء رعيته والمسيحيين، وكل سكان المنطقة. والمأمول أن يأتي بطريرك مؤمن بعدالة القضية الفلسطينية وبالحق العربي، وبضرورة احترام حرية العبادة والممارسة والحياة العادية في القدس وفلسطين والأردن.

(كاتب من الأردن)

ماكرون المكيافيلي في بيروت

عائشة البصري

معروفٌ عن الرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون، أنه يُقحم، في حديثه عن أمور المجتمع والدولة، أقوال أرسطو ورامبو وهيغل وبودلير وريكور وغيرهم. يردد أقوالا لشعراء، وعلماء، وفلاسفة، أثروا فيه، غير أن كاتبا واحدا يعرفه أكثر من غيره، نيكولا مكيافيلي، فقد خصّص ماكرون لمهذا السياسي الإيطالي الذي دخل التاريخ بكتابه «الأمير»، بحثًا لنيل دبلوم الإجازة في الفلسفة من جامعة باريس - نانتير في عام 2000. ولكن من الطبيعي أن يجد ماكرون حرجا في أن يُبدي إعجابه بهذا الكاتب الذي اكتسب سمعة سيئة عبر العصور، لتشجيعه الحكام على التظاهر بالصدق وممارسة الخداع من منطلق «الغاية تبرّر الوسيلة». ولكن تأثير مكيافيلي على الرئيس الفرنسي حاضر جدا في سياساته، ولعل أهم لحظة مكيافيلية في مسيرته كانت في بيروت، غداة انفجار الرابع من أغسطس/ آب المنصرم.

في بيروت، سيمتثل الرئيس الفرنسي لإحدى نصائح شيطان السياسة التي يوصي فيها الأمير، بأن يبدو رحيما وصادقا ومستقيما ومتديّنا أمام من يراه ويسمعه، لأن العالم يتكون من عامّة الناس، والعامّة لا تحكم على الأشياء إلا حسب ما تراه أعينها من مظهرها الخارجي. لن يجد ماكرون صعوبةً في تقمص شخصية الأمير الفاضل. فقد كان التمثيل إحدى هواياته، إذ لم يكن عمره يتجاوز الخمسة عشر عاما، حين وقف على خشبة المسرح المدرسي وشدّ الجمهور بأدائه الدرامي.

في بيروت، سيمارس ماكرون دبلوماسية الابتسامة، واللمس، والمصافحة، والعناق بانتقائية. امتنع بادئ الأمر عن مصافحة الرئيس ميشيل عون، لحظة وصوله إلى مطار بيروت، وارتمى في أحضان الشعب بجوار المرفأ، كي تُعنْوِن الصحافة: «لم يصافح عون، وعانق الشعب». كان الدّور محبوكا في أدقّ تفاصيله، ومشاهده، حسب سكريبت «بحبّك يا لبنان»، الذي سيتضمن إخراجه في الزيارة الثانية، زرع أرزة، وشرب فنجان قهوة مع فيروز، والاجتماع بالبطريرك بشارة الراعي، والبكاء على كتف ماجدة الرومي. في بيروت، تفقّد الرئيس أحياء العاصمة المدمّرة مشمّرا عن ساعديه، وكأنه جاء ليعيد بناء العاصمة بيديه. اختلط بالحشود في حدّ الالتصاق بها، ليُشعر الشعب اللبناني بأنه قريب منه إلى حد الملامس. تحرّك تحت هتافات «تحيا فرنسا»، وتنديدات بإجرام الطبقة الحاكمة وفسادها. أخبر اللبنانيين بأنه جاء ليساعدهم بلا شروط، وتعهّد بعدم تسليم المساعدات الإنسانية للفاسدين. وبعد أن نزع الثقة عن الحكومة، تعهد بـ«ميثاق سياسي جديد»، ودعا إلى «تغيير عميق».

جعل الرئيس الفرنسي يعظهم يصدّق أنه جاء لينقذ الشعب من قبضة النظام، في حين أنه أنقذ النظام من غضب الشعب. هرول إلى بيروت في أكثر الأوقات حرجا بالنسبة للنظام، في وقتٍ ضاق فيه الخناقان، المحلي والدولي، على الطبقة الحاكمة، وفي مقدّمتها حزب الله. اتجهت أصابع اتهام نحو الحزب، بناءً على شهادات تفيد بتخزينه سلاحا في المرفأ، الأمر الذي نفاه أمين عام الحزب، حسن نصرالله. دخل ماكرون على الخط، لحظة تزلزلت الأرض تحت أقدام حزب الله، وأنذرت بانفجار شعبي في وجهه، اقتحم بيروت في بداية غليان غير مسبوق وعابر للطوائف، وازدياد السخط الدولي على هذا التنظيم. كانت لحظة مواجهةٍ، وفرصة تاريخية للمساءلة، والتركيز على تحقيق مستقل، وحسم موضوع سلاح حزب الله والطائفة. من الصعب التكهن ما كانت ستؤول إليه الأمور، لو لم يتدخل ماكرون في مجرى الأحداث، ولكن يمكن تقييم التغييرات التي أحدثها هذا التدخل على الساحة اللبنانية.

خطفت زيارة الرئيس الفرنسي الأضواء، وباتت حديث الساعة، فتحوّل الموضوع من التفجير إلى ما بعد التفجير، ومن سلاح حزب الله إلى شرعيته، ومن مسؤولية الطبقة الحاكمة في هذه الجريمة إلى مسؤوليتها في مشروع الإصلاح. بدّد ماكرون غضب الشارع قبل أن يبلغ ذروته، وبخّر عن السيطرة، لطف الأجواء بتفاؤله، ووعوده التي تشبه الوعود الانتخابية، ومطالبته بتحقيق دولي، وكأن دولته لم تنشر على الأقل 22 محققًا لتقف بنفسها على حقيقة الجريمة، وتمسّك بها بوصفها ورقة ضغط سياسية وراء الكواليس. احتوى الوضع إلى حد كبير، ثم طار إلى عاصمة الجن والملائكة، بعد أن بعثر الأوراق وراءه، وترك الجميع يحلل ويناقش دوافع هذه الزيارة ودلالاتها، ويترقب الجديد في ما باتت توصف بـ«مبادرة ماكرون».

وقف بعضهم حائرا أمام ما يعنيه الرئيس الفرنسي بتغيير النظام السياسي، مع دفاعه عن شرعية النظام، وبناء الثقة مع من لا ثقة له بها، وشرعنة سياسة حزب مسلح، والمساعدة الإنسانية بلا شروط، باستثناء شرط الإصلاح في ظل الفساد الهيكلي، المنظم. وحتى لا يتهمه أحد بالكذب والخداع، أوضح الرئيس للصحافة في بيروت أن الالتزام يتم في إطار الجدلية، وأن «الثقة لا تنبني إلا على الحقيقة، والوقائع، والجدلية التي تلازمهما». وحين يتحدّث ماكرون عن الجدلية، فإنه يعني بها جدلية الفيلسوف هيغل الذي خصّص له بحثًا لنيل دبلوم الدراسات المعمقة. ولا يهم الرئيس من هيغل إلا التناقض، حتى لا يجد حرجا في أن يصف نفسه بأنه «مثالي - براغماتي»، «يميني ويساري في الوقت نفسه»، يؤمن بـ «الطوباوية الملموسة»، و«التدمير الخلاق». يقول ماكرون الشيء ونقيضه، ويَعِدُ بشيءٍ ويفعل عكسه، فقد وعد اللبنانيين بتغيير النظام، ثم نجح في فكّ العزلة عن هذا النظام، بل شرعنه بدعوى أنه منتخب. تحدّث عن المساءلة، وساعد الطبقة الحاكمة على النجاة من المحاسبة في لحظة حاسمة. دعم حياد البطريرك الراعي، وتحيّز لحزب الله، فكان مُلَخِّبًا أكثر من الملك. فلطالما رفض قادة التنظيم التمييز بين جناحيه، العسكري والسياسي، وشدّدوا على أن حزب الله كيان واحد غير قابل للتجزئة، وإن جهاده المسلح ونشاطه السياسي وجهان لعملة واحدة.

لم يتوقف ماكرون عند دفاعه عن شرعية الجناح السياسي لهذا الحزب، بل تعدّاه إلى محاولة التغاضي عن سلاحه غير الشرعي. سبق ديموقليس المسلط على رقبة الشعب اللبناني. ولولا الصحافي الفرنسي، جورج مالبرونو، الذي وبخّه الرئيس أمام الملأ، لما علمنا باللقاء الذي جمعه بالنائب محمد رعد، رئيس كتلة حزب الله النيابية، يوم 6 أغسطس/ آب الماضي في بيروت. غضب ماكرون، لأن صحيفة لوفيغارو الفرنسية نشرت للصحافي مقالا ينقل ما دار بين الرجلين في لقاء قصير، اقترح خلاله ماكرون على حزب الله هذه الصفقة: «لن نزعجكم في مسألة أسلحتكم، وفي نقطتين أو ثلاث نقاط تهمهم؛ لكن في المقابل، ضحّوا الأوكسجين في النظام، أقبلوا اللعبة، لأننا لا نستطيع الاستمرار هكذا، وسيغرق مناصروكم إذا ما غرق النظام».

الأوكسجين هو تحديدا ما كان ينقص حزب الله آنذاك، وهو ما زوّده به الرئيس الفرنسي، فاستجمع أنفاسه، وعاد يتحكم في مفاصل الحكم، ويعرقل المبادرة الفرنسية التي سبق أن رحب بها، يبدو أن نصر الله وإيران أكثر مكرا من ماكرون، ويطبقان عليه مقولة مكيافيلي: يا لها من متعةٍ مضاعفةٍ عندما تخدع المخادع!

(كاتبة مغربية)

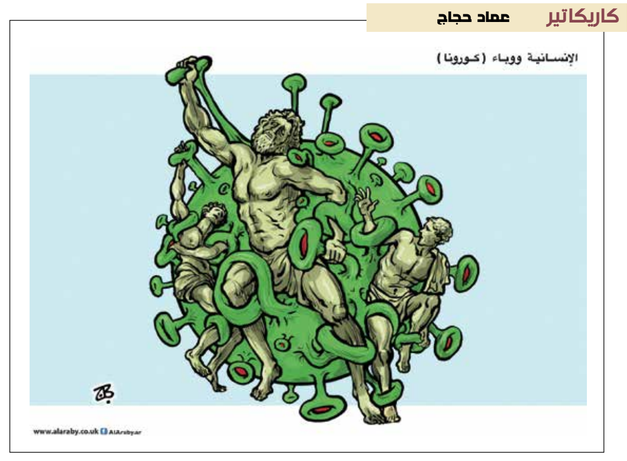

هل يطيّح نظام دمشق؟ بأي ثمن؟

غازي دحمان

يطرح صمت نظام الأسد عن اتفاقيات التطبيع بين الإمارات والبحرين مع إسرائيل سؤالاً عن أسبابه، فيما طالما استغل هذا النظام مثل هذه المناسبات لإبراز مدى محافظته على الحقوق العربية، وتمسكه بالنضال لتحرير فلسطين والأراضي العربية المحتلة، فأين ذهب صوته هذه المرّة، مع أنه ما زال يعبّر عن إدانته بتنفيذ أجندة صهيو- أميركية، لإسقاطه في إطار مؤامرة كونية؟

معاداة إسرائيل مسألة وظيفية لنظام الأسد، لتحقيق جملة من الأغراض، يحتاج الأسدان (الأب والابن) تحقيقها في الداخل السوري، وفي البيئتين، الإقليمية والدولية، مثل إضفاء الشرعية على نظام لم يمتلك في أي يوم مشروعا واضح المعالم، فقد تأرجح بين عدة مشاريع، لينتهي، لأسباب طائفية، إلى الانخراط ضمن مشروع إيران في المنطقة. وعلى الرغم من ذلك، ظل يناور، ولم يلتزم التزاماً كاملاً بهذا المشروع، إلا بعد أن أصبحت حاجته لإيران وأدواتها ضرورية لبقائه في السلطة، في مقابل انعدام جميع الخيارات.

ولكن ليس خافياً أن نظام الأسد لم يطق يوماً برنامج إيران، وتحديداً في شقّه المتعلق بمواجهة إسرائيل، لإدراكه التكاليف العالية التي يرتبها عليه ذلك البرنامج، كما أنه يفضّل اتّباع تكتيكات في هذا المجال، تختلف عن أسلوب إيران، فقد اعتاد نظام الأسد على تشغيل وكلاء عنه، للحفاظ على صورته مقاوماً، ولم ينخرط يوماً في مقاومة مباشرة لإسرائيل، بل فضّل أدواراً من نوع ناقل أسلحة إلى حزب الله، أو مستضيفاً للمكاتب السياسية لحركات المقاومة الفلسطينية، حماس والجهاد الإسلامي. وفي هذه الحالات، كانت المخاطرة محسوبةً والتكاليف محتملة، وكانت ردّات الفعل الإسرائيلية محصورةً في عمليات اغتيال لأعضاء هذه التنظيمات، وكانت إسرائيل تفضل هذا الدور لنظام الأسد، وشاع بين السياسيين والمثقفين أن حضن نظام الأسد يشكّل مقبرة للثوريين، فكل ناشط سياسي، أو مثقف، أو حركة مقاومة، يصاب بالإحصاء في دمشق، ويفقد فعاليته، وشيئاً فشيئاً يتحوّل إلى سائح في ربوع سورية وينسى قضيته الأساسية. ولذلك رفض مناضلون كثيرون الوقوع في الفخ السوري، على الرغم من قلة الخيارات والبدائل.

في مرحلة الثورة، وجد نظام الأسد نفسه في موقع لم يردده. ولم يكن خافياً أن إيران استثمرت ضعفه، وحاجتها له، لتوزّطه عنوة في مشروعها. ولكن تغيّرت وضعية نظام الأسد بعد تدخل روسيا، وسيطرتها على مساحة واسعة من سورية، والأهم زوال خطر سقوطه، وهي القضية الأساسية التي تشغله، وتشكّل المحدّد الأساسي لتحالفاته وتوجهاته وسياساته. وقد تراجعت أهمية تحالفه مع إيران إلى الحد الذي يستثمره موازنًا للدور الروسي الذي يخاف من بيعه في أي بازارٍ يحقّق قدراً أكبر لمصالح الرئيس بوتين.

والمشكلة في نظر نظام الأسد أن الاعتماد على الحليف الروسي وحده غير كافٍ لدوام استمراره، خصوصا بعد نزع بوتين جميع أوراق القوّة من يد الأسد، عبر السيطرة على الاقتصاد السوري، واختراقه الأجهزة الأمنية والعسكرية، وتشكيل بدائل سياسية يمكن لروسيا، إذا ما أرادت تفعيلها، أن تصبح واجهات سياسية تحل مكان الأسد.

هنا ترتسم إسرائيل في الأفق مخلصاً محتملاً، إذ تستطيع، إذا ما حرّكت أدواتها المؤثرة في دوائر القرار في الولايات المتحدة وأوروبا، شطب أو تجميد فعالية كل هذه القوانين والقرارات والمحاكمات. وسبق أن فعلت ذلك، فبعد احتلال العراق، زار وزير الخارجية في إدارة بوش دمشق، وقدم للأسد شروطاً عشرة لبقائه في الحكم. ولكن، وباعترافات من أجهزة المخابرات الإسرائيلية، ذهبت الوفود العسكرية والأمنية إلى واشنطن، وقالوا لهم بالحرف: أنتم سترحلون، لكننا باقون في الشرق الأوسط، وإزاحة نظام الأسد عن حكم سورية يعني أنكم تضعون صبرنا في خطر، فالبدائل غير مضمونة الحفاظ على أمن إسرائيل.

> نظام الأسد في حاجة لوسائد أمان لن توفّرها له سوى إسرائيل والتطبيع معها

يعرف نظام الأسد هذه الحقائق، ويعرف أن المرحلة المقبلة مصيرية بالنسبة له، وهو في حاجةٍ لوسائد أمان لن توفرها له سوى إسرائيل، والتطبيع معها. في هذه الحالة، لن يكون من الصعب على نظام الأسد الانتقال إلى شعارات جديدة، المسألة ليست سوى تحت شعارات وتعميمها، مثل «سلام الشجعان» و«من أجل مستقبل الأجيال» و«حاربنا بصلابة ونذخل السلام بقناعة»، وهكذا.

يعرف نظام الأسد أن الساحة الداخلية بارة، فلن يجد حرجاً أو مراكز قوى تعارضه، فهذه وتلك كلها من صنع يديه، أما روسيا فسيبعدها هذا، لأنها ستضيف إلى أدوارها دورا جديدا في المنطقة، المساهمة في صناعة السلام، بعد أن ساهمت في «الحرب على الإرهاب». الإشكالية الوحيدة ربما إيران. ولكن علينا التنبه إلى أن الأسد العراقي، زار وزير الخارجية في إدارة بوش دمشق، وقدم رئيس الحكومة، مصطفى الكاظمي، في إضعاف نفوذ إيران، وتجريد مليشياتها من السلاح. وفور نجاح هذا الأمر، لن يتردّد الأسد في الذهاب إلى السلام والتطبيع مع إسرائيل.

(كاتب فلسطيني)

خذوا الحرب بجدّية

محمود الشيخ

لا أرى بأسًا، وقد أكون مخطئًا، في أن يحاول أحد افتراضيًا، في العام 2020، استشارة الشاعر العربي القديم، زهير بن أبي سلمى، في المشهد الإقليمي الراهن، خصوصا أن جانبًا لا يستهان به من الفعل السياسي العربي (قرب نهاية الربع الأول من القرن الحادي والعشرين)، لم يحقق من النضج ما يتجاوز كثيرًا ما كان عليه عرب القرن السابع الميلادي.

وفي الأدبيات المنهجية التي تشرح: «ما الحرب؟» تجد الحرب بوصفها: «امتدادًا للسياسة»، أو «أداة لتحقيق أهداف سياسية». هذا أكثر وضوحًا في الفكر السياسي للعصر الحديث، لكن جانبًا كبيرًا مما شهده العالم العربي، منذ عقود، من حروب تقليدية وحروب أهلية، يؤكد أننا ما نزال بعيدين عن دخوله. فحروبنا كانت، غالبًا، نفيًا للسياسة، وتنكرًا للسياسة، وارتدادًا شاملًا إلى منطق الحرب، التي هي «مَا عَلَيْتَمْ وَذُقْتُمْ» (والوصف لزهير في معلقته)، وجانب ممن يتخذون قرار الحرب، ومن يركبون الآن نحو الحرب، برغي ويزيد للخطر، بسبب اختلال العلاقة بين السكان والمساحة، فما بالك بالهشاشة السكانية لدول مثل ليبيا أو الإمارات أو البحرين أو ...

وعندما تقرّر دولة، مثل بريطانيا، بكل ما لديها من ثروة في الخبرة بالعلاقات الدولية، تعزيز قاعدتها العسكرية في عُمان، فإن هذا يعني، ضمن شواهد أخرى كثيرة من شرق المتوسط إلى الخليج العربي، أن الحرب قادمة، واتجاهات التسلح في المنطقة لا تشير إلى ازدياد في الإنفاق (فهذا معيار رقمي)، بل إلى تحوّل في البنية، فالقواعد التي تنشئها دول من خارج المنطقة لمحاكاة السياسة لحركات المقاومة الفلسطينية، حماس والجهاد الإسلامي، وفي هذه الحالات، كانت المخاطرة محسوبةً والتكاليف محتملة، وكانت لهذه الفعل الإسرائيلية محصورةً في عمليات اغتيال لأعضاء هذه التنظيمات، وكانت إسرائيل تفضل هذا الدور لنظام الأسد، وشاع بين السياسيين والمثقفين أن وحديث الحرب، فضلًا عن ظلالها القاتمة يلوّن المشهد من «المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، والقواعد العسكرية تتكاثر كالفطر، وتتعدّد جنسياتها، والوجود العسكري الرسمي: الأميركي والبريطاني والفرنسي والروسي والتركي، مؤشر واحد، وشركات المرتزقة ليست أقل عددًا ولا تعدّدًا، والجماعات المسلحة العشائرية والأيديولوجية والمذهبية والقومية، تتحدّى كل شرعية وكل منطق وكل... ما الذي يبقى سوى شرارة تشعل الحريق؟

كانت النسبة الكبرى من حروب القرن الماضي محكومة بمنطق، وإن بقيت غير مرغوبة، أما اليوم، فتطل خيارا محتملا، تغذّيها مخاوف تتجاوز «حدود السياسة»، و«الخائفون» قد يكونون أكثر تمسّكًا بخيار الحرب من «العدوانيين». ولا يجد بعض الخائفين مفرًا من خوفهم، لأنه مما لا سبيل إلى الفرار من أسبابه، والمثال الأكثر تعبيرًا عن ذلك الذي مبعثه «هشاشة البنية السكانية». ومنذ سنوات، أطلق الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، صيحة تحذير من أن بلاده التي يتجاوز سكانها المائة مليون، يمكن أن يتعرّض أمنها القومي للخطر، بسبب اختلال العلاقة بين السكان والمساحة، فما بالك بالهشاشة السكانية لدول خارج حدودها، وبعضها أنشأتها دول ما تحت الصفر، وخصوصا من عمارات الملاحة الأكثر أهمية في المنطقة، وتلك توجهاتٌ تحدث عنها، ... ... هي الحرب، ونحن، كما قال زهير، «نطعمها» فتزداد ضراوةً، ثم تلتقت الحرب إلى من أطعمها، فتلتهمه.

سقطة «إخوان» البحرين

معن البياري

امتنعت جمعية المنبر الوطني الإسلامية، في البحرين، المنتسبة إلى التنظيم العالمي (وليس الدولي) للإخوان المسلمين، والذراع السياسي لجمعية الإصلاح (الدعوية)، المعلنة في 1948)، عن مشاركة 17 جمعية ونقابة ورابطة و.. في البلاد، متنوّعة الألوان القومية واليسارية والليبرالية (بعضها قريب إلى حد ما من السلطة) في التوقيع على بيان أكّد رفضا قاطعا لاتفاقية العلاقات الكاملة مع إسرائيل. وأثرت الجمعية، المعلنة في العام 2002، إصدار بيان، مشترك مع ثلاث جمعيات أخرى، سلفية ووسطية، لا يتزيّد واحدنا في نعته تأييدا للاتفاقية الشائنة، عندما لم يرفضها، وانكتب فيه أن الجمعيات الموقعة عليه «لا تُنازع القيادة السياسية حقها في الاجتهاد في اتخاذ المواقف السياسية بالتنسيق مع السلطة التشريعية»، واكتفى بأن هذه المواقف «لا تمنع حق الشعب البحريني في مقاطعة كافة أوجه التطبيع والتعامل التجاري والثقافي والسياحي.. في إطار الدستور والقانون». ولم يبالغ من نعتوا البيان المذكور بأنه صادم، سيما وأنه يغاير ما دأبت على إصداره الجمعية، ذات التوجهات الإخوانية، من بيانات تنديد بإسرائيل، وتضامن مع الشعب الفلسطيني، ورفض الاتفاق الإماراتي الإسرائيلي أيضا. والمرجّح أنها صحيحةٌ الأخبار أن قيادات في «الإخوان المسلمين» في غير بلد عربي بعثوا إلى «إخوانهم» في المملكة استياءهم الشديد مما خالفوا فيه المنطوق العام للجماعة في عدم التهاون بصدد أي شكلٍ من العلاقات مع العدو الإسرائيلي (لم يتضمن البيان هذه الصفة لإسرائيل)، غير أنه ليس مؤكّدا أن الجمعية البحرينية تنوي الإعلان، خلال أيام، إخراج نفسها من التنظيم العالمي للإخوان المسلمين، دفعا لحرج الآخرين، ونأيا بنفسها عن حسابات الخارج.

ولا يسع واحدنا في تفسير سلوك «المنبر الوطني الإسلامي» (دعك ممن معها) غير أنه أثر تغليب مصالح فئوية (نتحرّز من القول إنها طائفية) على المبدئية في قضيةٍ مركزية، كان الظن أنها جامعة، وأعلى من أي حساباتٍ جزئيةٍ وظرفية. وإذا كان مشهودا أن «إخوان» البحرين لم يساندوا، بالمدى المطلوب، أي توجهاتٍ إصلاحيةٍ

الزعامة والديمقراطية والحركات الإسلامية... الغنوشي مثالاً

المهدي مبروك

التقى نحو مائة من قياديي حركة النهضة (التونسية) رئيسها ورئيس مجلس النواب، راشد الغنوشي، لحثه على عدم الترشح لرئاسة الحركة بانعقاد مؤتمرها الحادي عشر مجدّدا. ويبدو أن اللقاء كان متوترا، ولم يفض إلى أي حلول، بل زاد في تأجيج الخلافات بين إخوة التنظيم والمحنة، والسلطة أيضا. ربما كان ذلك بعض ما دفعهم إلى صياغة «عريضة المائة»، وهي رسالة مطولة موجهة إلى الغنوشي، سرعان ما تسربت عمدا إلى الإعلام، دعوه فيها إلى ضرورة الالتزام بالفصل 31 من النظام الداخلي لحركة النهضة، وعدم الترشح لولاية ثالثة. وقد رد عليها الغنوشي برسالةٍ لم تخلُ من حدّة، انتهت إلى الإعلام أيضا.

بدأت، قبل أشهر، خلافات «النهضة» تصل بتفاصيلها إلى الرأي العام التونسي، ولم يعد في وسع الوعاء الفولاذي الذي احتواها عقودا طويلة، بمبرّرات الطاعة والولاء، ومقتضيات العمل السري، وتربص الأعداء، .. إلخ، أن يمنع تسرّب تلك السيول الفائضة عنه. والخلاف الحادث مرشّح للتفاقم، استنادا إلى ما عبّر عنه عديدون من أبناء الحركة، الأمر الذي يلقي ظلالا، لا على وحدة الحركة وتماسكها فحسب، بل أيضا على الاستقرار السياسي للبلاد. وقد علمت التجارب القريبة التونسيين أن النزاعات داخل الحزب الحاكم تنعكس بشكل كارثي على استقرار الحكومة، ومؤسسات الحكم عموما، مثلما حدث مع حزب نداء تونس خلال المدة النيابية الفارطة. وأيا كانت المآلات المقبلة، فإن الأمر على غاية الأهمية، وذلك ما يدفع إلى فهم تشكل مقولة الزعامة وإنتاجها في سياق تونسي، يخص حركة النهضة تحديدا.

منذ ظهور الحركات الإسلامية، بدءا من مرحلتها الإحيائية المبكرة (الوهابية، السنوسية ..) وحتى «الجهادية» المتطرّفة والعنيفة أخيرا، ظلت الزعامة تبرُز بشكل تدريجي بطيء ومرتبك، والواضح أنها فكرة حديثة، لم تشر إليها كتب التراجم أو الطبقات أو السير قديما، وذلك على خلاف مفاهيم الإمامة والإمارة .. إلخ.

ولا تسعفنا المباحث اللغوية لأصل الكلمة وما تفرع عنها من اشتقاقاتٍ ومجازات، على الرغم من ورود اللفظ في القرآن الكريم، ما يفيد مدلولا دقيقا، يحيلُ، بشكل صريح، إلى ما يدل عليه اللفظ المتداول حاليا في علاقة مباشرة بالحقل السياسي.

فكرة الزعامة حديثة برزت في سياقات متأخرة، وهي ترجمة غير دقيقة لجملة من المصطلحات والمفاهيم التي تشير إلى قدرات وكفاءات وخصال استثنائية ومتفرّدة، يتميز بها شخص ما، وذلك ما يؤهله لأن يعتلي مقاما مرموقا ومكانة مخصوصة، تخوّل له توجيه الآخرين وصنع القرارات نيابة عنهم، أتباعا كانوا أو مؤيدين.

وقد يشمل ذلك فئاتٍ واسعة من «المواطنين». والغريب أن استقرار مفهوم الزعيم داخل الحقل السياسي العربي، وتحوله سريعا إلى حاضنة له، لم يخلُ من تلبسّه لبوسا غير ديمقراطي، خصوصا في العهد الأول من اكتشاف الزعامات أو صنعها في عالمنا العربي، أي زعامات حركات التحرّر وبناء الدولة الوطنية. كانت معارك التحرّر الوطني هي الاختبارات المبكرة الأولى «لاكتشاف» هذه الزعامات وإنتاجها، بل إن عديدين منها ماتوا، ليتم اكتشاف زعامتهم وإنتاجها لاحقا في شكل من التدارك والاعتراف المتأخر الذي لا يخلو من بناء شرعيات وسرديات مستجدّة. وهذا لا يبخس هؤلاء مكانتهم أو فرادتهم الاستثنائية.

ولكن ثمّة حركة «تزعيم» لا تخلو من استراتيجياتٍ معقدة. ويحري منذ عقود تنشيط حركة إنتاج الزعامات في سياقات معقدة، لنكتشف زعامات مختلفة متعدّدة، قادمة من مشارب وتجارب مختلفة: الحبيب بورقيبة، جمال عبد الناصر، أحمد بن بلة، صدام حسين، معمر القذافي .. إلخ، وما زالت هذه الحركة مستمرةً في سياق أنماط جديدة لإنتاج الزعامات (الشعبوية مثلا).

ما الذي يجمع كل هؤلاء الزعماء، ويجعل منهم «صناعة وطنية أصيلة»: النضال والكفاح ضد قوى استعمارية، قدرات فائقة على تعبئة الرأي العام، وما يقتضيه من تواصل لا يخلو من شعبوية وديماغوجية. لا يخلو ذلك من ممارساتٍ كانت على حساب العقلانية السياسية وحقوق المواطنة والمشاركة السياسية، إذ لا ينمو الزعيم وهو محاط بمنافسين، فباستثناء أعداد قليلة، التهم هؤلاء رفاقهم وأصحابهم. انتهت حياة بعضهم بانقلابات واغتيالات، ونجا آخرون بأعجوبة ليتم «تخليد ذكراهم شهداء زعماء إلى الأبد». لدى نفر قليل من المريدين على الأقل.

حين نشأت الحركات الإسلامية في هذه المناخات، لم تكن قادرة على النجاة بنفسها من فكرة الزعامة ومدلولاتها الحقيقية أو المتخيلة، ضخّت الثورة الإيرانية في موج الزعامة، ليعلو هادرا وأعطت مشروعية إضافية إلى مزيد من الزعامات في الحقل الديني السياسي الملتبس. ربما كانت مقولات الأمير، الإمام، الشيخ، العالم، المنقذ، على الرغم من أن الفروق الفكرية بين كل هذه التسميات، واختلاف آليات إنتاجها، قد أعطت مشروعية لرواج فكرة الزعامة بهذا المعنى. وقد وقعت حركة الاتجاه الإسلامي (النهضة) في تونس تحت جاذبية فكرة الزعيم، وقد احتفت، في أحد أعداد مجلتها، المعرفة، بـ«الزعيم آية الله الخميني»، باعتباره قائدا عظيما ومجدّدا ومنقذا .. إلخ.

ومع ذلك، لا نجد مطلقا، في أدبياتها التأسيسية، شيئا من هذا القبيل، كانت تخص به راشد الغنوشي، باعتباره أحد كبار مؤسسيها، وأميرها بالمعنى التنظيمي والخلقي، وحتى السياسي. وفي هذه الحركة بالذات، تمثل حالة راشد الغنوشي مخبرا لمعرفة آليات إنتاج الزعامة التي هي في الأصل جهد فردي وجماعي تاريخي، إذ لا يولد الزعماء زعماء، إنما ينتجون في سياقات تاريخية ملتبسة، ومهما كانت خصالهم وقدراتهم وجدارتهم الحقيقية، أو المتوهمة، فإنهم لا يحققون حولهم إجماعا، مهما كانت عبقريتهم وكفاءتهم وجدارتهم.

على خلاف بعض التصورات، تفجرت الخلافات مبكرا داخل حركة النهضة، الإسلامية، لا على خلفية التوجهات الفكرية والخيارات السياسية فحسب، بل على خلفية مسألة القيادة، إذ شهدت تصدّعا آخر السبعينيات، وتتالت الانسحابات من بعض مؤسسيها، وممن تولى قيادتها، غير أن الحركة استطاعت أن تتجاوز هذه الأزمات الحادة. وقد يعود الأمر إلى عوامل عدة: التنشئة الأخلاقية، الملاحقات الأمنية ..إلخ، غير أن محنة المهجر أضعفت مكانة الغنوشي بين رفاقه، حتى جاءت الثورة لتعيد دعم «مكانته»، وتنقذه من وضع حرج، في ظل دعوات إلى التقييم والمحاسبة. كانت الحركة، قبيل الثورة، على أهبة التصدّع، بحكم الفشل الذريع الذي انتهت إليه تجربة الصدام مع النظام، كما يرى خصوم الغنوشي. أنقذت الثورة الحركة، والغنوشي تحديدا، ومنحت بعضهم فرصة غير مسبوقة لاستئناف الاشتغال على إنتاج زعامته.

> كان الغنوشي يعتقد أن التاريخ ثأر له وأمدّه برصيد إضافي، لا لحكم البلاد أو المشاركة فيه، بل لإثبات مكانته

> أنقذت الثورة حركة النهضة، والغنوشي تحديداً، ومنحت بعضهم فرصة غير مسبوقة لاستئناف الاشتغال على إنتاج زعامته

كان الغنوشي يعتقد أن التاريخ ثأر له وأمدّه برصيد إضافي، لا لحكم البلاد أو المشاركة فيه، بل لإثبات مكانته، وحيازة صلاحيات أكبر، غير أن جملة من الوقائع خالفت هذه الطموحات، فقد نشطت عوامل عديدة في نهش بذور الزعامة وتهرئتها: صعوبات الحكم والأخطاء المرتكبة، شراسة الخصوم والمناوئين له الذين لم يستثنوا منهجا أو طريقة للإساءة إليه، ونزع هالة الزعامة عنه، خصوصا وقد تزامن ذلك مع اندلاع صراعات حادّة، كشفها المؤتمر العاشر للحركة. ولم تنفع قبلات الاختتام وصور العناق الملتبس في تبديد الخلافات التي تجرأت على منافسته على منصب الرئاسة. لم يوصَف راشد الغنوشي بالزعيم إلا في السنوات القليلة الماضية، فقد وُصف، أكثر من أربعة عقود، بالشيخ والداعية والأستاذ والمفكر الإسلامي والقيادي البارز. ولم نقف على هذه المفردة في أدبيات الحركة حتى حدود الانتخابات النيابية في تونس في 2014. وربما كان بعض أتباع الحركة الإسلامية وأنصارها هم أول من وصفوه بذلك، في لحظة انكسار نسبي، عرفت إعادة تمجيد «الزعيم الحبيب بورقيبة»، وفي سياقات كان رموز «النهضة» وقياداتها يدافعون عن الرجل، ويردّون عنه الشبهات والتهم التي تحرص على النيْل منه وتبخيسه. إنها استراتيجية دفاعية في المقام الأول، موجهة إلى خصوم الداخل والخارج. سيتم إعادة اكتشاف خصال الرجل وحكمته ورصانته وعمق تفكيره، وتحيين ذلك كله (تجنيب تونس خطر الحرب الأهلية ...)، من أجل البدء في إنتاج فكرة الزعيم ومنحها للرجل. وقد غدت العبارة: الزعيم راشد الغنوشي كثيفة التداول، بدءا من سنة 2015 في منابر إعلامية. إنه زعيم تونسي، بل وعربي، جدير بكل ثناء وتقدير. لا يعنينا إثبات زعامة الشيخ راشد الغنوشي أو نفيها، بقدر حرصنا على تتبع مسارات تشكل فكرة الزعامة في حركة النهضة، وقدرتها على التوافق مع الديمقراطية والحوكمة.

في سياق ديمقراطي تخلص من العمل السرّي، وذاقت فيه الأحزاب السياسية طعم السلطة مرّها وحلوها، وسمح بصعود «الأستاذ والشيخ راشد الغنوشي» إلى البرلمان، فإنه فقد عدة «مواد للزعامة»، وأصبح «مسؤولا سياسيا». إنه رئيس مجلس النواب، المجلس المعروض بازارا سياسيا عنيفا، يستهلك فيه التونسيون «الفاست فود السياسي» على قاعدة نهش ونهم يومي، لا تصمد فيه الزعامات طويلا. والأرجح أن الديمقراطية لا تتسع لفكرة الزعامة أصلا، وهي التي تحثّ على المشاركة السياسية والمساواة والتنافس والاختيار الحر للمسؤولين والقادة، حتى داخل الأحزاب ذاتها. في الديمقرطيات العريقة، ثمّة قادة كبار. ولكن لا ندري إن كانت الديمقراطيات الناشئة قادرةً على الاحتفاظ بالزعيم ضمن ثقافتها، من دون أن تنهك الديمقراطية ذاتها وتتلف أهم ما فيها: الاختيار الحر.

(كاتب ووزير تونسي سابق)

مصر في جلسة للكونغرس

علاء بيومي

عقدت إحدى لجان مجلس النواب الأميركي الفرعية المعنية بالشرق الأوسط، في التاسع من شهر سبتمبر/ أيلول الحالي، جلسة استماع عن أحدث توجهات أوضاع حقوق الإنسان والاقتصاد والسياسة في مصر، وقد شهدت الجلسة حضورا جيدا لأعضاء مجلس النواب، خصوصا في أوساط نواب الحزب الديمقراطي، ومشاركةٍ من عدد من أبرز الباحثين الأميركيين المعنين بمصر، وكذلك مشاركة ناشطين مصريين، وهما محمد سلطان ومدير مركز القاهرة لحقوق الإنسان، بهي الدين حسن. ولعل أهمية الجلسة تكمن فيما شهدته من نقاش جاد في الأوضاع السياسية في مصر، وواقع العلاقات المصرية الأميركية، وما وصلت إليه ومستقبلها، وهو نقاش يستحق الرصد بموضوعية ودقة، كما يسعى إليه المقال.

أولا: كشفت الجلسة عن مدى تردّي صورة مصر وأوضاعها السياسية داخل واشنطن، حيث بدا من شهادات مختلف الخبراء والناشطين مدى استيائهم من تردّي أوضاع حقوق الإنسان في مصر، وانغلاق الأفق السياسي، وتوغل الجيش في الاقتصاد والسياسة، وكيف وصلت الأوضاع السياسية إلى تدهور وتردٍّ وصفته شهادات كثيرة بأنه «غير مسبوق».

تحدث بهي الدين حسن، في شهادته، عن العلاقة بين النظام ونشطاء حقوق الإنسان، وكيف باتت تقوم على «العنف والإخفاء والاعتقال»، وكيف يتم ترقية ضباط متهمين بالتعذيب وإعلاميين مسؤولين عن تشويه سمعة نشطاء حقوق الإنسان وتهديدهم، وكيف اضطر للخروج من مصر خوفا على حياته، بعد أن وصلت إليه تهديدات بالقتل.

وتحدّث محمد سلطان عن ظروف اعتقاله، واعتقال آلاف في سجون لا تصلح لحياة الحيوانات، كما ذكر، وعن آثار التعذيب التي ما زالت ظاهرة على جسده، وعن الانتقام من أقاربه في مصر واعتقال بعضهم، بسبب القضية التي رفعها ضد رئيس الوزراء المصري السابق حازم الببلاوي.

أما الباحثة ميشيل دن، كبيرة الباحثين في مركز كارنيجي، فقد تحدثت عن المليارات التي أنفقها النظام المصري خلال السنوات الأخيرة على مشروع العاصمة الإدارية الجديدة وشراء الأسلحة، في الوقت الذي يستدين فيه باستمرار من الخارج. حيث ذكرت الباحثة أن النظام المصري أنفق تسعة مليارات دولار على العاصمة الجديدة حتى ربيع عام 2019، كما أنفق تسعة مليارات دولار أخرى على استيراد الأسلحة من 2015 إلى 2019 . بالإضافة إلى الأسلحة التي يحصل عليها من أميركا (بقيمة 1,3 مليار دولار سنويا). في وقتٍ اقترضت فيه مصر 20 مليار دولار من صندوق النقد الدولي وحده منذ 2016.

ولم تتضمّن الشهادات، أو أسئلة أعضاء الكونغرس وتعليقاتهم، تعاطفا يذكر مع النظام في مصر، أو حديثا عن إصلاحات وهمية أو تدريجية، يقوم بها النظام كما كان في عهد حسني مبارك، لذا كشفت الجلسة بوضوح عن مدى الانقطاع والتردّي الذي تعيشه صورة مصر وسمعتها في واشنطن في عهد عبد الفتاح السيسي.

ثانيا: كشفت الجلسة أيضا عن مدى التناقض الذي بُنيت عليه السياسة الخارجية تجاه مصر، وكيف يضر بالعلاقة بين البلدين، فمصالح أميركا في مصر تتعارض بشكل كبير مع قيمها. أميركا مشغولة بالأساس بحماية إسرائيل، والاستقرار في المنطقة (استقرار الديكتاتوريات وتدفق النفط)، وتريد من مصر أن تلعب دورا إيجابيا في دعم التطبيع مع إسرائيل وضمان استقرار النظم القائمة. وتتعارض تلك المصالح بوضوح مع قيم من قبيل نشر الديمقراطية والحريات، وهي قيم تتعامى عنها أميركا بشكل كبير في ما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني، وتناصرها باستحياء، وعلى فترات متقطعة في دول عربية أخرى، كما حدث في مصر في أواخر عهد مبارك. لذا بدت مطالب الشهود جميعا متواضعة، خصوصا بعد تخلّي إدارة ترامب عن سياسة نشر الديمقراطية والحريات، وتقرّبها من الديكتاتوريات، وانخفض سقف مطالب الشهود والخبراء بشكل واضح، واقتصرت على الحد الأدنى، كالمطالبة بالعودة للحديث عن حقوق الإنسان، وعدم الإفراط في التنازل عن القيم الأميركية، حين التعامل مع الحكومة المصرية وإدراك أن الاستبداد ينشر الراديكالية والتطرّف، ويزرع بذور عدم الاستقرار، وهي مطالب تبدو أولية، وتظل أملا بعيدا لو استمرّت إدارة ترامب في الحكم لدورة مقبلة.

ثالثا: لا يعني ما سبق أن العلاقات المصرية الأميركية مزدهرةً أو قوية، فعلى النقيض أكد مختلف الشهود أن تلك العلاقة في تراجع، لأسباب أميركية ومصرية على حد سواء، فأميركا ترى العلاقة من منظور مصالحها بالأساس، وفي مقدمتها إسرائيل، وضمان استقرار المنطقة. وفي الحالتين، لم تعد مصر دولة قيادية أو رئيسية إقليميا.

وهنا قال النائب الديمقراطي عن ولاية كاليفورنيا، براد شيرمان، إن أميركا دفعت مليارات، منذ نهاية السبعينيات، للحفاظ على السلام بين مصر وإسرائيل، وهي فكرة لم تعد مقبولة أخيرا، خصوصا بعد تطبيع دول عربية، كالإمارات، علاقتها مع إسرائيل من دون مقابل. كما تحدّث شهود آخرون عن تبعية مصر للإمارات في أكثر من ملف إقليمي، وكيف باتت دولة تابعة داخل المحور السعودي الإماراتي. وهذا يعني أن دور مصر وقيمتها في المنطقة، وأهميتها في السياسة الأميركية، في انحسار. أضف إلى ذلك حقيقة تراجع الدور الأميركي نفسه في المنطقة، وسعى أميركا إلى التخلص من أعباء سياساتها في المنطقة.

كما تحدّث الباحث في معهد هدسن للأبحاث، صموئيل تادروس، عن رؤية النظام المصري نفسه لتشويه صورة الولايات المتحدة في إعلامه، والحديث عن صراعات وهمية مع أميركا، واستخدام تلك الصراعات في تحسين صورته داخلية، وهو ما يؤدي إلى نشر مشاعر الرفض والاستياء تجاه أميركا وسط المصريين، على الرغم من تحالف البلدين منذ أكثر من أربعين عاما. باختصار، لا يبحث النظام في مصر عن تحالفٍ بين بلدين، ولا ينشغل إلا بتقوية نفسه بعيدا عن المؤسسات ومصالح الطرفين. لذا تحدّث بعض النواب عن مساعي مصر إلى تقوية علاقاتها بروسيا، واستيراد بعض الأسلحة منها، وكيف يمكن أن تعرّض مصر لعقوبات لو تمت.

> صورة مصر في واشنطن سيئة للغاية، وقيمة مصر بالنسبة للولايات المتحدة في المنطقة في تراجع

> تحدّث محمد سلطان في جلسة الكونغرس عن ظروف اعتقاله، واعتقال آلاف في سجون لا تصلح لحياة الحيوانات

لذا تبدو العلاقات المصرية الأميركية مرشّحة للتغيير في الفترة المقبلة، خصوصا لو صعدت إلى الحكم إدارات ديمقراطية، فصورة مصر في واشنطن سيئة للغاية، وقيمة مصر بالنسبة للولايات المتحدة في المنطقة في تراجع، واهتمام أميركا نفسه بالمنطقة في تراجع، وهناك صعود واضح لتوجه ديمقراطي حقوقي في أوساط الحزب الديمقراطي، والذي يسيطر على مجلس النواب الأميركي حاليا، وسيطر ممثلوه على الجلسة، وبدا واضحا من مداخلاتهم وعيهم بالحالة المتردّية التي وصلت إليها أوضاع حقوق الإنسان والأوضاع السياسية في مصر ومدى تعاطفهم مع معاناة الناشطين المصريين ورفضهم النظام المصري القائم.

ولا يعني هذا خروج سياسة أميركا تجاه مصر من تناقضها الرئيسي، المتعلق بالدوران في فلك حماية إسرائيل، وضمان أمن الديكتاتوريات العربية، سريعا. إنما يعني دخول السياسة الأميركية تجاه مصر مرحلةً من إعادة التقييم، تهيمن عليها النظرة السلبية تجاه مصر ومحاولة التخلص من التبعات السلبية للعلاقة معها، وهي مرحلةٌ بدأت بالفعل.

(كاتب مصري في لندن)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ سكرتير التحرير **حكيم عنكر** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads